

# أبو يوسف

للدكتور فؤاد عبد المنعم

تمهيد :

شهد مجتمع الشرع الاسلامي ، تحقيق العدل ، بايصال الحقوق الى اصحابها ، وتطبيق مبادئه وتعاليمه من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فيما يعرض عليهم من منازعات واقضية ، بذلوا كل طاقاتهم في المسائل الجزئية المتجددة التي لا نص فيها من الكتاب او السنة ليصلوا فيها الى وجه الحق ، فنعلم قطعا وبقينا ان الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد ، ونعلم قطعا وبقينا انه لم يرد في كل حادثة نص ، ولا يتصور ذلك ايضا ، والنصوص اذا كانت متناهية ، والوقائع غير

متناهية ، وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى ، علم قطعا ان الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار ، حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد . من هؤلاء الرجال قاضي القضاة ابو يوسف . وتبدو اهمية بحث شخصيته ، انها تعين قضاة اليوم على المضي في طريق اسلافهم ، يتغنون الحق ، ولا يخشون فيه لومة لائم .

معالم حياته :

● عربي الاصل ، من قبيلة الاوس التي نصرت رسول الله ، جده الاكبر سعد بن حبه اشترك — على الرغم من صغر سنه — مقاتلا جادا في سبيل الله في غزوة الخندق ، ف جذب



نظر الرسول عليه السلام فأقبل عليه النبى ودعا له ومسح رأسه ويقول ابو يوسف « تلك المسحة فينا الى يوم القيامة » .

● والده ابراهيم بن حبيب خياط فقير بالكوفة ، انعم الله عليه بيعقوب في ١١٣ هـ - ٧٣١ هـ الذى اشتهر فيها بعد بابى يوسف قاضى القضاة ● بدات علامات الخير فى ابى يوسف منذ صغره ، فسمى الى حفظ الاحاديث وسميها من كبار رجال عصره مثل : ابى اسحاق الشيبانى وسليمان التميمى ، والاعمش ، وهشام بن عروة ، وعطاء بن السائب وعندما اصبح سنه سبعة عشرة عاما أخذ يملئ على الناس . يقول الطبرى ( ٣١٠ هـ ) عنه « كان يحضر المحدث فيحفظ خمسين او ستين حديثا ثم يقوم ويمليها على الناس كما سمعها » .

● تفقه فى الدين وتلمذ على يد محمد بن عبد الرحمن بن ابى ليلى ( ١٨٤ هـ ) تسع سنين ، وتولى استاذة القضاء فانقل الى ابى حنيفة ( ١٥٠ هـ ) وحرص على مجلسه . يروى لنا ابو يوسف حالة فى تلك الفترة فيقول : « كنت اطلب الحديث والفقه وانا مقل فجاء ابى يوما وانا عند ابى حنيفة وقال : يا بنى لا تمدن رجلك مع ابى حنيفة ، فان خبزها مشوى وانت محتاج الى المعاش فأثرت طاعة ابى فتفقدنى ابو حنيفة فجعلت اتعاهد مجلسه » . وجاء والدى يضح ويصيح ويقول : يعصينى هذا الولد وانتم تعينونه ؟

فقال له ابو حنيفة وماذا تريد منه ؟ قال اريد منه ان يلزم السوق ويعول عياله . ويذكر لنا القاضى التتوخى ( ٣٨٤ هـ ) فى كتابه الفرج بعد الشدة فيقول : « خرج ابى يوسف لمجلس ابى حنيفة يوما فأقام فيه وعاد ليلا وطلب ما يأكل ، فجاءته امه بكتبه مغطاة فكشفها فقال ما هذا ؟ قالت ما انت مشغول به نهارك اجمع فكل منه ليلا . . » ورغبته فى العلم جعلته من اجل اصحاب ابى حنيفة . وقد تسوسم فيه استاذة اهلية القضاء .

● تولى القضاء فى زمن الخليفة المهدى ( ١٦٩ هـ ) والهادى ( ١٧٠ هـ ) ووثقت الصلة بينه وبين هارون الرشيد ( ١٩٣ هـ ) فولاه قضاء البلاد كلها ، واطلق عليه قاضى القضاة وهو اول من اطلق عليه ذلك اللقب ، وبقي فى ذلك المنصب الى ان مات ببغداد عام ١٨٢ هـ - ٧٩٨ م .

### دفع شبهة عن ابى يوسف :

ادعى بعض المعاصرين لابى يوسف ، انه كان يجامل الحاكم فى قضاؤه وقد تلقف المستشرقون هذه الروايات ورموا ابا يوسف بعدم العدل ويدحض هذه الفرية ما جاء بأخبار القضاة لو كيع : « خوصم موسى الهادى ( ١٧٠ هـ ) . امير المؤمنين - الى ابى يوسف فى بستانه فكان الحكم فى الظاهر لامير المؤمنين وكان الامر على خلاف ما يظهر من الحكم فقال له امير المؤمنين : ما صنعت فى الامر الذى



الله لومة لائم » ولقد كانت ثقة ابي يوسف في عدله دفعتته الى ان يقول ساعة موته : « اللهم انك تعلم اننى لم اجر في حكم حكمته بين عبادك متعمدا ، ولقد اجتهدت في الحكم بما يوافق كتابك وسنته نبيك .. » . فكيف يمكن ان يقال ان ابا يوسف يجهل الحاكم على حساب المحكومين ؟!

### صورة من انصاف ابي يوسف وفقهه :

روى الحسن بن زياد فقال : « كنا يوما بباب ابي يوسف اذ اقبل من دار الرشيد بيتهم فقال : حدثت مسألة في دار امير المؤمنين ، وهي ان قاضيا بأرمينيا اختصم اليه جارين في جرتين قد استقتا ماء . فوضعتا الجرتين لتستريحا فسقطت جرة احدهما على جرة الاخرى فانكسرتا فاختصمتا الى القاضي فقالت كل واحدة منهما سقطت جرة هذه على جرتي وكسرتها فجعل القاضي ينظر اليهما لا يعرف المدعى منهما من المدعى عليه . فقال للقيم : اخرهما ! ثم صاحتا واويحتا ! فقال للقيم : اذهب فاشتر لهما جرتين وارض كلا منهما . فلما كان العشي قال لرجل كان يأنس به : ماذا يقول الناس ويخوضون فيه من امرنا ؟ قال يقولون : ان القاضي لم يحسن ان يحكم في جرتين حتى غرمتما ! فقال سبحانه الله : افلا يرضون مني ان احكم فيما احسن واغرم فيهما لا احسن ؟! قال ابو يوسف : فقلت يا

تتنازع اليك فيه ؟ قال : خصم امير المؤمنين يسألني ان احلف امير المؤمنين ان شهوده شهودا على الحق فقال موسى : وترى ذلك ؟ قال : قد كان ابن الجاليلي يراه فقال : فأردد البستان عليه . ان عدم اطمئنان ابي يوسف لشهادة شهود الحاكم وسعيه للوصول الى الحق في هذه المسألة ، دفعه ان يطلب بجرأة من الحاكم نفسه توثيق شهوده بأن يقسم على انهم صادقون ويتهرب الحاكم من القسم بلباقة ، وامر ابا يوسف بأن يحكم لخصمه . وقد كانت لابي يوسف عند الرشيد منزلة رفيعة بحيث يصل الى دار الخلافة راكبا دابته فيرفع له الستر فيدخل كما هو راكبا ، والرشيد يبده بالسلام « مداعبا » وقد سأل يوما : ان انا شهدت امرا هل تقبلها مني ؟ قال ابو يوسف : لا فسأله عن ذلك قال : لانك تتكبر على الخلق ، ولا تحضر الجماعة مع المسلمين ، فبنى الرشيد مسجدا في داره وسمح للامة بالصلاة في مسجده وحضر الخليفة الصلاة معهم .

ويوجه ابو يوسف الرشيد فيقول له : « ان الدعاة مؤدون الى ربهم ما يؤدي الراعي الى ربه ، فأقسم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار فان اسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيتة .. وكن من خشية الله على حذر واجعل الناس في امر الله سواء القريب والبعيد ولا تخف في



امير المؤمنين هذا رجل عاقل فزدد في ارزاقه للغرامات الف درهم كل شهر . فقلنا لابي يوسف كيف جواب هذه المسألة ؟ قال ان كانتا وضعنا الجرتين في مستراح للمسلمين فكل واحدة منهما جاعلة جرتها في حقها غير جانبية على صاحبتها وعلى كل واحدة منهما قيمة جرة صاحبها ، وان كانت احدهما في مستراح والاخرى في غير المستراح فالتى في غير المستراح جانبية على صاحبها . فأبى يوسف ان ينصف من يعمل معه من القضاة وان خالفهم في الراى .

### آثاره واثاره :

● ان كتب ابي يوسف التى وصلت الينا قليلة فقد ضاع منها الكثير وعلى الرغم من قلة ما وصلنا منها الا انها تشهد بأنه فقيه كبير بل ورائد من رواد علم الاقتصاد ، ففى كتابه الخراج يبحث عن الموارد المالية للدولة الاسلامية من جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالى . ويعنى ابو يوسف بالخراج ضريبة الارض فقد تركت الارض المفتوحة على ملك اصحابها وفرض عليهم دفع ضريبة هى الخراج . ويعنى بالعشور ما يحصل من الاراضى التى اسلم اهلها كارض المدينة واليمن . ويعنى بالصدقات الزكاة المفروضة على المسلمين من مالهم . وبالجوالى الجزية على رؤوس الذميين وامثالهم فهو يتعرض لضرائب الارض وضرائب الرؤوس ويظهر فى الكتاب اثر النقل

والعقل معا ، فهو كثير النقل عمن النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وغيرهم ، وهو مع هذا يخالف عمر بن الخطاب فيما قدر على الاراضى ، ويرد ما يتعلق بها من اعتراض فلقد سئل ابو يوسف : لم لم ترد الناس الى ما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه وضعه على ارضهم ونخلهم وشجرهم . وقد كانوا بذلك راضين وله محتملين ؟ قال ابو يوسف : ان عمر رضى الله عنه رآى الارض فى ذلك الوقت محتملة لما وضع عليها ، ولم يقل وضع عليها ما وضع من الخراج ان هذا الخراج لازم لاهل الخراج ، وحتم عليهم ، ولا يجوز لى ولن بعدى من الخلفاء ان ينقص منه ولا يزيد فيه ، بل كان فيما قال لحذيفة وعثمان حين اتياه بخبر ما كان استعملهما عليه من ارض العراق : « لعلمنا حملتما الارض ما لا تطيق » دليل على انها لو اخبراه انها لا تطيق ذلك الذى حملته من اهلها لنقص مما كان جعله عليهم من الخراج . فلما راينا ما كان جعله ( عمر ) على ارضهم من الخراج يصعب عليهم ، وراينا اخذهم بذلك داعيا الى اجلانهم عن ارضهم وتركهم لها لم تحملهم ما لا يطيقون ، ولم تأخذهم من الخراج الا بما تحتمله ارضهم . ومن هنا يتضح لنا اجتهاد الرجل وقوة حجة .

● كتب اختلاف ابي حنيفة وابن ابي ليلى ، وهو نتيجة طبيعية للتلمذة عليهما ، وكان منصفاً بينهما ،



على مالك بن انس وكتاب الجوامع  
الفه ليحيى بن خالد يحتوي على  
اربعين كتابا ذكر فيه اختلاف الناس  
والراى المأخوذة به . وكتاب  
ادب القاضي وقد ذكره حاجى خليفة  
فى كشف الطنون .

وكان لابی يوسف اثره فى نشر  
المذهب الحنبلى بما ألف من كتب سجل  
فيها آراء استاذة : ولتولى القضاء  
ومنصب قاضى القضاة ، وقد كان  
للتجربة العملية فضل كبير فى تكوين  
كثير من آرائه واجتهاده التى تتسم  
بالواقعية ولذلك فقد صرح الفقهاء  
بان الفتوى على قول أبى يوسف فيما  
يتعلق بالقضاء والشهادات ، وان  
القضاة الذين جاءوا بعده كانوا  
ياخذون بأحكامه .

واخيرا انقرض راي الائمة فيه :  
يقول استاذ الامام ابو حنيفة عندما  
زار تلميذه ابا يوسف وهو مريض :  
« ان يمت هذا الفتى فهو اعلم من  
عليها وأوما على الارض » وروى  
عن الامام مالك قوله : « لم يكن فى  
اصحاب أبى حنيفة مثل أبى يوسف  
علما وفقها ومعرفة ، لولاه لم يذكر  
ابو حنيفة ولا ابن أبى ليلى لكنه نشر  
علمهما .. » ويقول الامام احمد بن  
حنبل : « ابو يوسف كان منصفاً فى  
الحديث .

لقد اصبح ابن الخياط الفقيه  
يضرب به المثل فى طلب العلم  
والحرص عليه وكيف وصلت به  
ارادته الى أعلى المناصب فى مجتمع  
اسلامى تحققت فيه تكافؤ الفرص  
امام الجميع .

وبين موقفه منها ، وكان لـه  
استقلاله وذاتيته فقد سأل امير  
المؤمنين هارون الرشيد عما يخرج  
من البحر من حلية وعنبر وقد كان  
ابو حنيفة وابن أبى ليلى رحمهما  
الله يقولان : ليس فى شىء من ذلك  
شىء لانه بمنزلة السمك واما انسا  
فارى فى ذلك الخمس واربعة  
اخماسه لمن أخرجه . لانه قد روينسا  
فيه حديثا عن عمر رضى الله عنه ،  
ووافقه عليه عبد الله بن عباس  
فاتبعنا الاثر ولم نر خلافا .

● كتاب الرد على سيرة الازاعى :  
ويرد ابو يوسف فيه على عبد الرحمن  
الازاعى امام الشام فى المسائل  
التي خالف فيها ابا حنيفة فى سيرة  
المسلمين فى معاملة المشركين من  
اهل الحرب ، واهل العهد  
والمستأمنين واهل الذمة واهل  
البغى ، وما يتعلق بها من غنائم  
واثار .

● كتاب الاثار ويضم روايات  
أبى حنيفة وبعض آرائه الفقهية ..  
ومن الكتب التى لم تصلنا ما يذكره  
لنا ابن النديم فى فهرسته لابی يوسف  
من الكتب فى الاصول والامالى :  
كتاب الصلاة ، وكتاب الزكاة وكتاب  
الصيام وكتاب الفرائض وكتاب  
البيوع وكتاب الحدود وكتاب الوكالة  
وكتاب الوصايا ، وكتاب الصيد  
والذبايح وكتاب الغصب والاستبراء .  
ولابى يوسف املاء رواه بشر بن  
الوليد القاضى يحتوي على ستين  
وثلاثين كتابا مما فرعه ابو يوسف :  
كتاب اختلاف الامصار وكتاب الرد